

دخل ابن قحطبه حصن الكوفة دون قتال يوم الثلاثاء الرابع عشر من محرم عام ١٣٢هـ/٧٤٩م، ويدخوله صار ابو سلمه الخلال وزيرا نيابة عن العباسيين ومع ان اسم ابراهيم بن محمد امام الهاشمية كان الاسم الشائع للخلافة العباسية، غير ان وفاته دعت الى تعيين اخيه ابن العباس عبدالله بن محمد خلفا له^(١). وبذلك فان نجاح الدعوة العباسية بدخولها الكوفة وتسلم ابي العباس كرسي الخلافة جعل دعائم الدولة الاموية قد تنقوض بشكل نهائي لاسيما بعد ان تعقب العباسيون فلول الجيش الاموي الهارب الى مصر . فكانت الثورة العباسية هي الضربة القاضية التي انهدت حكم الاسرة العربية الاموية التي اعتبتها الظروف والمشاكل السياسية والادارية والاجتماعية حتى صارت بوضع لاتستطيع معه على الوقوف ازاء الجيش العباسي المتوجه نحو الكوفة او حتى الصمود امام تقدم هذا الجيش .

وبمقتل مروان بن محمد في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ بمصر زالت دولة بني امية التي عمرت الف شهر ، هي قرابة احدى وتسعين سنة منذ ان تنازل الحسن ابن علي لمعاوية بن ابي سفيان عن الخلافة سنة ٤١هـ حتى مصرع مروان سنة ١٣٢هـ .

٤- التناقضات الاجتماعية

والمقصود بذلك ما واجهه البيت الاموي من تحد اجتماعي فرضته الظروف السياسية الادارية فالمعروف ان الخلافة الاموية بدأت في الاسرة السفينانية من البيت الاموي حتى مؤتمر الجابية الذي انعقد في سنة ٦٤هـ ، اذ نجح شيخ الاسرة المروانية من هذا البيت مروان الاول بن

(١) انظر مقالة Abbasids في دائرة المعارف الاسلامية فوزي ، فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية ، شعبان ، محمد عبد الحي : الثورة العباسية ص ٢٥٠-٢٥٦ الخريوطي ، علي حسني : الدولة العربية الاسلامية (١٩٦٠) ص ٣٠٩-٣١٣ .

العباسيون : ينسب العباسيون الى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد المطلب بن قصي عم النبي (ص) وقد ولد قبل عام الفيل بثلاثة اعوام ، فهو يكنى المصطفى (ص) بثلاث سنين وكان يكنى ابا الفضل وكانت له السفاية وزمزم . دفعها اليه النبي (ص) يوم فتح مكة وكان يوم الغيبة مع النبي (ص) فعقد له على الامصار . وقد اسلم العباس قبيل فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة . توفي العباس سنة ٢٢هـ بالمدينة وهو ابن (٨٩) سنة واشتهر من عقبه : عبد الله الذي عرف في التاريخ بابن عباس " وكان مولده في مكة قبل الهجرة بعامين او ثلاثة كان مفسرا قديرا ومحدثا ثقة وفيها وجندا شجاعا توفي في الطائف سنة ٦٧هـ او ٦٨هـ . وكان قد نفاه عبد الله بن الزبير الى الطائف ايام خلافته ومن ابناءه (علي) وهو ابو الخلفاء من بني العباس ، ولد سنة ٤٠هـ وكان من اعبد الناس واحلمهم وقد ارتحل مع اسرته سنة ٩٥هـ الى قرية الحميمة بالقرب الشراة جنوبي فلسطين ، اجلاء اليها الوليد بن عبد الملك وفيها ولد اكثر ابناءه ، توفي عام ١١٧هـ . وكان من ولده : محمد داود ، عيسى ، سليمان ، صالح ، وعبد الله ، وبيت الخلافة في عقب ولده الاكبر (محمد) . وبعد موت علي خلفه في زعامة الاسرة ولده محمد هذا الذي كان على جانب كبير من الذكاء السياسي وطموح النفس وهو والد ابراهيم الامام والسفاح اول الخلفاء بني العباس ، والمتصور ثانيهم .

الحكم بن العاص الى ان يسحب الخلافة الى اسرته المروانية في ذلك المؤتمر اما خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان انذاك صغير السن ، قليل الخبرة مقارنة بالشيخ مروان بن الحكم . والحقيقة ان مروان لم يعمر طويلا فترك الخلافة في ابنه المفتر عبد الملك بن مروان الذي نجح تماما في سياسة الداخلية وفي اعادة الوحدة السياسية للحكم الاموي على البلاد الاسلامية يساعده في ذلك بعض الولاة الكفوئين وعلى راسهم الحجاج الثقفي .

لكن منذ ولاية سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ / ٧١٥-٧١٧م) بدأت تظهر متغيرات جديدة يسودها عنصر التباغض والحقد بين افراد الاسرة المروانية ، اذ كان سليمان مثلا يبغض الحجاج الثقفي واهله وولاته ومن بينهم قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي لانشيء الا لانه الوليد بن عبد الملك اثناء خلافته حاول ان يخلع سليمان من ولاية العهد ويبايع ابنه عبد العزيز بن عبد الملك بدلا عنه ، فابدى سليمان تبرمة وبغضه من اخيه وسياسته فشمّل هذا البغض جميع العمال الذين عملوا مع اخيه وايدّه في سياسة الخلع تلك فمثلا ان السبب الرئيس لتغيير سليمان بن عبد الملك على قتيبة يرجع الى فترة خلافة الوليد عندما رفض سليمان خلع نفسه من ولاية العهد لابن الوليد ، حينذ كتب الوليد كتابا وجهة الى عمالة في البلاد يدعوهم فيه الى مبايعة عبد العزيز ابنه بدلا من سليمان ودعا الناس الى ذلك لكن كتابه هذا لم يثمر عن نتيجة ايجابية اذ لم يوافق على مشروعه الا الحجاج الثقفي وقيتية وخواص الناس^(١) فقد طابق قتيبة راي الحجاج في نقل ولاية العهد الى عبد العزيز ، لذلك عندما توفي الوليد وتسلم سليمان الخلافة لم ينس ذلك الموقف فبدأ بتطهير جهازه الاداري من اولئك الرجال الذين وقفوا مع اخيه ضده كولي للعهد ولأول مرة تولد عنصر الشك وعدم الثقة والتبرم بين الخليفة وقواده وولاته ، فصار هذا العنصر سياسة اتبعها عدد ممن جاء بعد ذلك من الخلفاء الامويين المتأخرين وهي ابعاد الخليفة الجديد ، لا بل الانتقام من ولاة واداري الخليفة المتوفي او الخليفة الشرعي .

كما واجه يزيد بن المهلب بن ابي صفرة وخالد القسري وغيرهما ذات المصير فسليمان بن عبد الملك مثلا لم يرغب اثناء خلافته ان يولي احد اخوته ولاية العهد بل اقدم بمشورة من رجاء حيوه ان يرشح ابن عمه عمر بن عبد العزيز وذلك لان محاولة اقصائه من ولاية العهد اثناء خلافة الوليد قد ولدت عنده الكراهية والبغض لآخوته وافراد اسرته .

كما ظهر مثل هذا التبرم وعدم الرضا خلال خلافة عمر بن عبد العزيز عندما وقف بعض أمراء البيت الاموي موقفا سلبيا من الاجراءات الجديدة التي انتجها لاسيما مسألة الصلوات

(١) الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٩٨-٤٩٩ .

والهبات التي اعتاد افراد الاسرة على تسلمها من الخليفة الاموي فقد قال احدهم للخليفة عمر ' ياأمير المؤمنين ان قومك بالباب يسألونك ان تجري عليهم ما كان قبلك يجري عليهم فقال عمر : والله ما هذا المال لي ،ومالي الى ذلك من سبيل ^(١)

وازاء هذا الموقف فأن افراد البيت الاموي وقفوا بشكل قوي بوجه عمر بن عبد العزيز فوكلوا احدهم من المقربين ان يتحدث مع الخليفة فقال له " ان قرابتك يشكونك ويزعمون ويذكرون انك اخذت منهم خير غيرك فقال : ما منعتم حقا او شيئا كان لهم ولا اخذت منهم حقا او شيئا كان لهم ، فقالت (عمة الخليفة) اني رايتهم يتكلمون واني اخاف ان يهجموا عليك يوما عصبيا ..."^(٢)

ولما كان الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م) منصرفا الى شؤونه الخاصة بلهوه فقد ظهر في عهده توتر جديد مع اخيه هشام وكاد يصل هذا التناحر الى حالة من الاصطدام لولا ركون هشام الى السلم وعدم اثاره المتاعب .

غير أن أخطر تغير في التركيب الاجتماعي او البنية الاجتماعية للأسرة الاموية ما حدث ايام خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥هـ/٧٤٣م) الذي لم يبق في الخلافة الا سنة وشهرين واما الى ان قتل باحدى قرى دمشق سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م، ان الوليد كان ايضا سيء السيرة منهكما بملذاته في الوقت الذي كانت فيه الدولة الاموية تعاني من ازمات سياسية واقتصادية خطيرة فاعضب شيوخ البيت الاموي ، وقادهم غضبهم الى ان يتامروا ضد الخليفة مع بعض الرجال المتنفذين فهجموا على الوليد واغتيل على يد يزيد بن الوليد الذي استولى على الخلافة بدلا منه ومع ان يزيد لم يستمر خليفة الا خمسة اشهر واعقبه اخوه ابراهيم بن الوليد الا ان الحادثة بذاتها تعد تطورا ظاهرة لم يسبق ان مر بها تاريخ البيت الاموي اذ جهد اخر خليفة اموي مروان بن محمد الى ان ياخذ بثأر الخليفة المقتول وربما لكي يستثمر هذا التناقض والضعف لنفسه فجرد حملة عسكرية ضد الخليفة ابراهيم بن الوليد وطارده وقبض عليه ثم قتله وصلبه وقتل من كان يؤيده من البيت الاموي .

ان هذه الاعمال من الحقد والكراهية بين افراد البيت الاموي ادت كما يظهر من حوادث التناحر والقتل الى اضعاف سيادة البيت الاموي وعدم قدرته على متابعة التطورات والاشراف على شؤون الدولة بشكل دقيق وحازم .

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٥٩.

(٢) المصدر نفسه ص٥٨.

والأكثر خطورة أن تلك الأحداث وغيرها قوت روح التعصب القبلي بين القبائل التي وقفت مع الأمويين وساندت حكمهم واعتنى بذلك التصارع بين المجموعتين القبليتين القيسية واليمانية . ومع أن بوانر هذا التشاحن قد ظهر في أعقاب وفاة يزيد بن معاوية لكن هذه الهوة لم تكن انذاك قوية بحيث تؤثر على وحدة البيت الأموي وتماسكه وكان لموقف الخليفة عمر بن عبد العزيز المسالم قد ساعد على تخفيف النزاع القيس اليماني لكن وفاته كانت ايدانا لظهور هذه الظاهرة بشكل قوي وواضح اذ واجهت خلافة يزيد بن عبد الملك مشكلة سياسية بعثت الروح القبلية واعنى بها موقفه من يزيد بن المهلب بن ابي صفرة ، اذ فر يزيد هذا من سجن عمر بن عبد العزيز وتوجه الى البصرة واعلن تمرده ضد الخليفة الشرعي .

والمعروف ان اسرة يزيد المهالبة قد قدمت خدمات سياسية كبيرة للبيت الاموي لاسيما ما قدمه المهلب بن ابي صفرة واولاده من بلاء حسن في محاربة الخوارج الازارقة الذين هددوا سيادة ووحدة الحكم الاموي ، وكانوا مثلا للنبل والشجاعة والفضل فامتدحهم الشعراء والخطباء . وكان يزيد بن المهلب من القادة العسكريين المقربين للخلافة الاموية لكن الخليفة عمر ارتاب من اخلاصه وصدق موقفه فاودعه السجن فلما هرب وتوجه الى البصرة واجتمع حوله انصاره من بني تميم ، اخذ اهالي البصرة يقدون عليه من اليمانية والريعية (بنو ربيعة) فاجتمع حوله عدد كبير من الناس فحارب والي البصرة عدي بن اربطة واقبح في السيطرة على دار الامارة والقبض على واليها وسجنه كما استولى على البصرة وضواحيها وما يتبعها من الاقاليم فبعث يزيد عمالة على فارس والاحواز وعمان وجزيرة ابن كاوان (وكاوان) والبحرين وخراسان^(١) .

كانت اعمال يزيد السياسية هذه قد دفعت الخليفة يزيد بن عبد الملك الى ان يوجه مسلمة بن عبد الملك في جمع عظيم من اهل الشام لحرب يزيد بن المهلب الذي لم يستطع الصمود كثيرا على الرغم من محاولاته الجرئية ففي معركة (عقر) قتل ابن المهلب في مواجهة الجيش الاموي وبالتالي مقتله في المعركة ، وهرب المهالبة من ميدان المعركة وتعبهم مسلمة في كل مكان حتى الهند وكرمان ، وبدأت سياسة الثار من المهالبة ومن وقف معهم فكانت اول ثلثة اجتماعية كبيرة ، اذ صار من البيهبي على الخليفة ان ينفر من اليمانية ويميل الى جانب القيسية . فولى اخاه مسلمة بن عبد الملك الذي قضى على المهالبة ولاية المشرق وولى عمر ابن هبيرة وهو قيسي واليا على العراق واتخذ الخليفة شعار القيسية في سياسته بينما ضعف موقف اليمانية .

(١) البلاذري : انساب ص ٢٠٩ ، الطبري : تاريخ ج ٦ ص ٥٨٥-٥٨٦ ، العبود ، نافع : ال المهلب بن ابي صفرة

غير ان الحالة تبدلت عندما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك اخو يزيد وكان هشام ينتقد سياسة اخيه يزيد ويتركه من انصرافه عن شؤون الدولة ولهوه . فعندما تولى الخلافة وجد ان القيسية قد علت كلمتها واتسع نفوذها اجتماعيا واداريا ، فتحول في ميله الى اليمينية بغية ان يقلل من نفوذ المضريه الذي اخافه ويعيد التوازن بين المجموعتين الا انه ذهب بعيدا عن عملية تحقيق هذا التوازن حيث عمل على ابعاد كل من كان قيسيا عن العمال ليولي بدليهم يمينا . فصار خالد بن عبد الله القسري واليا على العراق واخوه اسد بن عبد الله القسري واليا على خراسان ، فدب النشاط والنفوذ في الجانب اليميني ليحل محل القيسيين ويأخذ بثأرهم مما انتاب اليمينية على ايدي القيسية .

لكن هشام لم يثبت في سياسته هذه ، ويبدو انه اتبع سياسة فرق تسد فانه لم يرتح كثيرا الى هيمنة اليمينية مرة اخرى ، فانقلب عليهم وعزل ولاتهم وعمالهم فعزل خالد القسري وولى يوسف بن عمر الثقفي العراق . والاكثر خطورة من كل هذا فان الخليفة لم يكتف بعزل الولاة اليمانيين فقد قتل خالد القسري فكان لمقتله اثر سياسيا كبيرا في اضعاف الحكم الاموي لان خالد كان يمثل زعيم اليمينية ، وكما ذكر فلهاوزن " ان سقوط خالد القسري كان ايدانا بنهاية الحكم الاموي القاضي ، وكان خلفه يوسف بن عمر من ال الحجاج ... بوذه لو جلب لولاية خراسان قيسيا (١) . فكان خليفته يوسف ابن عمر قيسيا فاليمانيون مازالوا يتذكرون نهاية احد زعمائهم من ال المهلب ثم اعقبه نهاية لزعميهم خالد القسري لاتهامه بميلة الى العلويين واغداقه عليهم الاموال ، وقيل انه اتهم بالزندقة لذلك صمم اليمانيون على الاخذ بثأرهم والعمل على تقويض السلطة الاموية وكان الوليد بن يزيد الخليفة الجديد قد استمر بميلة للقيسين واوغر في اقضاء اليمانيين مما زاد السخط والغضب ودفعهم الى تحيين الفرص للتامر وتدبير المكائد وتاييد الحركات المناهضة للخلافة الاموية .

وقد ساعدت حادثة مقتل الخليفة الشرعي الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٦هـ على تصعيد التآزم بين القيسين واليمانيين لان الخليفة الذي استولى على كرسي الخلافة يزيد بن الوليد هو الاخر اتخذ جانب دون اخر محاولة منه تقوية حكمة وتدعيم سلطته . وبدأ عمله هذا بعزل الولاة القيسين وتعيين ولاة جدد بدلا عنهم .

وما ان سئحت الفرصة لليمانيين ان يتنفذوا حتى اخذوا يتعقبون القيسيين والاساءة لهم ، فكانوا وراء الحركات التي اشتعلت بسبب تنفذهم في بلاد الشام خاصة في حمص وفلسطين والاردن وانضم الى اليمانيين يزيد ابن خالد بن معاوية واخرين من الاسرة الاموية وكان يزيد بن سليمان

(١) تتهاوزن : الدولة العربية ص ٢٧٥-٢٧٦.

بن عبد الملك وراء التمرد الذي حدث في فلسطين بينما قاد محمد بن عبد الملك ثمره أهل الاردن . وتعرضت سلطة الخليفة يزيد الى الخطر بسبب هذه الحركات لولا وقوف اليمانيين الى جانبه ، فأخذ يعتمد عليهم بصورة كبيرة لاسيما الكلبيون منهم فابعد كل قبسي من حاشيته وجعل منصور بن جهور الكلي واليا على العراق .

وعلى العموم فإن الحركات السياسية التي وقعت في بلاد الشام اقدت الخلافة الاموية الكثير من هيبتها ونفوذها فكيف بالمناطق النائية عن مركز الخلافة أي في خراسان واطرافها . اذ ان مروان بن محمد اخر الخلفاء الامويين عندما تولى الامر وجد البلاد تسودها الفوضى وفي بعض الاجزاء اختفى آثار السلطة الاموية والخطر الاول الذي جابهه بعد نجاح حملته ضد الخليفة الذي اعقب الوليد (أي ابراهيم) ذلك النزاع الحاد بين القيسيين المبعدين من النفوذ الان وبين اليمانيين اصحاب الشأن فكان مروان في بداية الامر يطمح الى ترشيح احد اولاد الوليد للخلافة ، بينما خطط اليمانيون اقضاء ابناؤه خوفا من ان يتغير عليهم فعمدوا الى قتلها وهما في السجن . لذلك حينما تولى مروان الامر مال الى جانب القيسيين وطالب اليمانيين بدم الوليد ، ولهذا اقدم اليمانيون ، والكلبيون خاصة الى اشعال نار الثورة في بلاد الشام^(١).

لذلك فإن هذا العامل الاجتماعي - السياسي - الاداري قد أعطى للدعاة العباسيين فرصا لاتقدر للتوغل بعيدا عن انظار الامويين وعمالهم ونشر دعوتهم في تربة خصبة يسودها التذمر والتبرم نتيجة لهذه الصراعات ونتيجة لعدم وجود خلفاء حازمين قادرين على قيادة السلطة وان بعضهم قد انصرف بصورة كبيرة الى شؤونه الخاصة والى اللهو والانغماس في الترف تاركا سياسة البلاد تغرق بين اليمانية والمضرية . ولهذا السبب فإن مروان بن محمد ذلك الرجل الذي خبر الحروب والنواحي العسكرية والذي افلح في وقت قصير على كبح الحركات القبلية المناهضة لم يفلح تماما في سد الثغرات التي تكاثرت في البلاد لاسيما في المشرق الاسلامي . فكانت المحصلة النهائية الحتمية تغير الأوضاع بانتقال السلطة الشرعية الى العباسيين لتنتهي مرحلة تعد من اهم المراحل التاريخية في تاريخ امتنا العربية الاسلامية

(١) الطبري : تاريخ حوادث سنة ١٢٦ هـ و ١٢٧ هـ ، ابن الاثير ج ٥ ص ١١٧-١٢٥ ، ١١٩-الذبيوري : الاخبار الطوال ص ٣٦٤ .